القسم الثاني

علم التاريخ ومناهجه

الفصل الأول

مدخل إلى علم التاريخ

معنى التاريخ وتعريفه:

تأخذ كلمة التاريخ في اللغة العربية خمسة أو ستة معاني، فقد استعملت بمعنى الإعلام بالوقت، وتاريخ شيء من الأشياء قد يدل على وقته الذي ينتهي إليه، مضافاً إليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع. واستعملت في التراث العربي الإسلامي بمعنى: أمجاد القوم وخلاصة شمائلهم، فيقال: فلان تاريخ قومه، واستعملت بمعنى تراجم الرجال (ببليوجرافيا) ومن ذلك تاريخ البخاري. واستعملت بمعنى رواية أخبار الماضي، كعناوين: تاريخ الطبري وابن الأثير والذهبي وغيرهم. وتستعمل اليوم أيضاً بمعنى: مسيرة البشر، فيقال: جرى ذلك في التاريخ أو تاريخ العرب، كما تستعمل بمعنى كتابة التاريخ ودراسته.

وتقابل كلمة " تاريخ " في اللغة العربية كلمة History في اللغة الإنجليزية، وكلمة Histoire في اللغة الفرنسية، وكلاهما اشتقاق من الكلمة اليونانية القديمة Istoria ، التي كانت تعني في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، أي لنوع من المعرفة كان يهم كل مواطن دولة المدينة الواحدة City - State، ألا وهي معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية. وسرعان ما أصبحت كلمة Istoria مقتصرة على معرفة الأحداث التي رافقت نمو هذه الظواهر، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع، والجدير بالذكر أن أرسطو قد استعمل كلمة Istoria بمعنى السرد المنظم لمجموعة من الظواهر

الطبيعية، سواء جاء ذلك السرد وفقا للتسلسل الزمني أم جاء غير ذلك، ولا يزال هذا الاستعمال شائعاً فيما نسميه " التاريخ الطبيعي " وقد أخذ الرومان تلك الكلمة بمعنى البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، وظلت كلمة Historia تعبيراً فنياً لم تتبدل حروفه بانتقاله إلى اللغة اللاتينية.(١)

وقد تدل كلمة " تاريخ " - كما في قول هرنشو Hearnshaw - على مطلق مجرى الحوادث الذي يصنعه الأبطال أو تصنعة الشعوب. ومن ثم، فقد صارت كلمة " تاريخ " تعني بوجه عام ماضي الإنسان، أو سلسلة من حوادث متعاقبة في زمن مضى؛ ولهذا وضع الألمان كلمة تحمل المعنى نفسه، وهي Geschichte المشتقة من الفعل الألماني Geschehen بمعنى يحدث.

وعلى العموم، فإن الأوروبيين المحدثين يستعملون لفظ " التاريخ " في ثلاثة مستويات من المعاني:

الاستعمال الأول: أن التاريخ يمكن أن يعرفنا بماضي البشرية كله كما حدث.

الاستعمال الثاني: أن التاريخ يعني محاولة الإنسان وصف الماضي وتفسيره، وهذه المحاولة تبذل للكشف عن الأشياء المهمة في الماضي على أساس من شواهد جزئية ماضية.

الاستعمال الثالث: الدراسة المنهجية للتاريخ، أي دراسة التاريخ كعلم، وإذا كانت هذه الظاهرة حديثة تقررت في جامعات غرب أوربا وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر فقط، وبذلك تأخرت تأخرا كبيرا

(١) د/ عبد الحميد العبادي، علم التاريخ (ترجمة لكتاب هرنشو) القاهرة ١٩٣٧، ص ٨
د/ حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، القاهرة دار المعارف ط٥ ١٩٨٤، ص ١٢.

عن دراسات الفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية، إلا أنها لم تكن كذلك بالنسبة للعرب، لأن التاريخ كعلم كان مقرراً ومعترفاً به، وكان يدرس منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لضرورته لتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ومعرفة رجال السند.

ومع ذلك، فقد أصبح مألوفا شائعاً التفريق بين التاريخ كمسيرة للإنسانية History وبين التأريخ أو علم التاريخ Historiography أي كتابة التاريخ، بجمع أحداثه وتنظيمها ودراستها وتحليلها واستخلاص النتائج منها. ويقول بهذاالصدد جورج سانتيانا في كتابه " مولد الفكر " :

" بين المعاني الكثيرة التي تعنيها كلمة التاريخ، يجب ألا نخلط بين معنين، هما :

أولاً - سياق الحوادث كما تقع فعلاً،

وثانياً - مشهد هذه الأحداث الذي يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه.

والتاريخ في المعنى الأول دفق هائل، وفي الثاني تأليف محدود " .

وإزاء صعوبة إدراك حقيقة التاريخ، لا بد أن نتساءل : ما هو التاريخ؟ يجيب عن هذا التساؤل بعض الباحثين بأنه دراسة الحوادث أو الحوادث نفسها. والحوادث جمع حادث، والحادث - من وجهة نظر المؤرخ - كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر، وكل ما يطرأ من تغير على الأرض أو في الكون متصلاً بحياة البشر. والحادث قد يكون مفاجئاً كوقوع زلزال يهدم المدن، وقد يكون عنيفاً مثل قيام حرب، وقد يكون بطيئاً غير محسوس

كعمليات التطور البطيئة التي لا يفطن الإنسان إلى حدوثها إلا على المدى الطويل. والعبرة في الحوادث التي هي مادة التأريخ هي أن تعني تغيراً في الأحوال، سواء أكان هذا التغير كبيراً أم صغيراً، محلياً أم عالمياً، وحوادث التاريخ إذن هي تغيرات، والحادث هو تغير.

وإذا كان التاريخ في حقيقته هو الحوادث، وكانت الحوادث هي التغيرات، والتغيرات وليدة الزمان أو سير الزمان، انتهينا الى أن التاريخ هو الزمان، ويكون ميدان اهتمام المؤرخ على هذا هو دراسة كل تغير طرأ على الكون والأرض وكان له تأثير على حياة البشر، ثم دراسة كل تغير طرأ على حياة البشر أنفسهم، مهما كان هذا التغير صغيراً أو غيرظاهر الأهمية. إذ أنه لا توجد في الحقيقة حوادث صغيرة وأخرى كبيرة؛ لأن الحوادث الكبيرة إنما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق. وكما أن السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار، فإن وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة تجمع قوى بشرية وتراكمها في دولة من الدول أو أكثر، فيؤدي هذا التجمع إلى الاحتكاك ثم الانفجار، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم عظماء الرجال، فهم في ذاتهم لا قيمة لهم إلا بالرجال الذين ساروا وراءهم وأيدوهم.

وقد يوهم هذا الكلام بأن ميدان التاريخ هو الماضي وحده، أو حكاية ما انقضت وفاتت وطواها الزمان، وليس هذا بصحيح، لأننا إذا قلنا أن التاريخ هو نهر الحياة، فإن هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعد زماننا. والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معا، وبعبارة أخرى: إن كلمة " تاريخ " تعني مجموعة الأحداث التي وقعت في

الماضي، والتي تقع حالياً، ثم التنبوء على هدى ذلك وفي ضوئه بما سوف يقع مستقبلاً.

والواقع أننا حين ندرس الماضي، فإننا في الوقت نفسه ندرس الحاضر والمستقبل؛ لأننا إذا دققنا النظر تبين لنا أنه لا شيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن. وفي علم الفيزياء يقولون: إن المادة لا تفنى، أما في علم التاريخ فنحن نقول: لا شيء يزول زوالاً تاماً، وإنما هي الأشياء نفسها تأخذ مع الأيام صوراً شتى. والذين ينظرون إلى كتاب في تاريخ مصر القديمة مثلاً ويعتقدون أنه تاريخ مضى وانقضى يخطئون، لأن شعب مصر القديمة لا زال حيّاً في كيان شعب مصر الراهن، وحضارتها لا زالت قائمة في الكثير من مظاهر حضارتنا الراهنة.[1]

ومن ثم، فليس التاريخ في نظر إنسان اليوم - كما هو الشأن بالنسبة لإنسان الأمس - سلسلة من حوادث متعاقبة في زمن مضى، وليس كما عرفه البعض بأنه " علم الماضي "؛ لأن الماضي - كما يقول بعض الباحثين - وعاء لكل مظاهر الكون، بمختلف أشكالها وألوانها، يتسع للجيولوجيا، ولعلم تطور الحياة ونشوئها وارتقائها، ولعلم الفلك وغيره. فلكل صنف من أصناف الكائنات من جماد ونبات وحيوان تاريخ، وهذا التاريخ له علماؤه وله مختصوه.

وكذلك للكائن البشري تاريخه - في جملة الكائنات - إذ إن هذا الكائن لا نستطيع أن نتصوره إلا في محيط وفي وضع وحالة، فالتاريخ إذن

---

(١) المرجع السابق، ص ٦ - ٧.

علم الإنسان في وضعه وأحواله المتغيرة دائماً أبدا. فهو علم نطلب منه أن يساعدنا على حل لغز الحياة، وفي حلّه طبعاً حل للغز الكائن البشري على العموم. وهذا العلم لايبسط سلطانه بالطبع إلا على الماضي، إلا أن هذا الماضي التاريخي من نوع خاص. فهو ليس بماض ذي حدود معينة ثابتة، وهو ماض في امتداد مستمر، فهو كالظل يأكل في كل لحظة الحاضر ويتحفز ليرخي سدوله على المستقبل. ثم أين هو الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل؟ إنك لا تكاد تفكر في لحظة " حاضرة " حتى تجد أنها قد أصبحت ماضياً في طرفة عين.

وخلاصة القول أن التاريخ ليس علم ماضي الإنسان، بل هو علم تطور الإنسان بلا انقطاع على مدى الزمان. فهو علم يعدو وراء الإنسان محاولاً أن يدركه وأن يفهمه، وأن يلقي عليه الأضواء في مختلف المراحل المتتابعة المتداخلة التي مر بها، ويتجه نحوها ويدأب على المرور بها وطيها في طيات التاريخ، أي إنه رحلة الإنسان إلى الزمان.

وعلى ذلك، فإن المؤرخ ليس ذلك الرجل المسن الطويل اللحية الغارق في غبار الماضي، ولا هو ذلك الشيخ الذي حنت ظهره السنوات التي قضاها زاحفاً بين الأسفار العتيقة والأضابير المتراكمة في كهوف المكتبات، وإنما هو على العكس من ذلك تماماً، إنه دارس حياة البشر كلّها قديمها وحديثها ومستقبلها، وهو يدرس الماضي ونظره متجه إلى المستقبل، بينما تقف أقدامه ثابتة على أرض الحاضر، وهو يعتبر تاريخ الإنسانية كلها تجربة واحدة بدأها آدم وسار فيها أولاده، وهو يرقبها ويحللها ويستخرج حقائقها لعله يخرج بشيء من الحكمة ينفع الإنسانية في تجاربها الكثيرة. وإذن فالمؤرخ

ليس مسجل أحداث الماضي فحسب، بل هو رفيق الإنسانية في حاضرها، وهو من قادة الإنسانية في سيرها الطويل نحو الغد[1].

غاية التاريخ وهدفه

شعر الناس منذ القدم بما للتاريخ من قيمة، فعنوا بدراسته، وسارعوا الى تدوين أخبار الإنسانية على صفحات الذاكرة، ثم على مبانيهم ومنشآتهم، ثم سجلوها في كتبهم وهو يحسون ضرورة صيانة تراث الآباء والأجداد.

على أن قيمة هذه الأخبار تباينت في أنظارهم بتباين الزمان والمكان، فحينما كان التاريخ قصصاً يختار الرواة من حوادثه ما لذ لهم ويلذ جمهورهم، كانت قيمته في التسلية وكسب الرزق، وحينما تغلبت فكرة السياسة أو الأخلاق و الدين والاقتصاد، أصبح التاريخ يخدم غرضاً سياسياً أو دينياً أو اجتماعياً. وترتب على هذا أن سجل بعضهم مفاخر العشيرة والقبيلة أو مآثر الآلهة، مما جعل من التاريخ مدرسة للوعظ والإرشاد، وقام آخرون بتسجيل التاريخ للملوك كي يكتسبوا من خلاله ما يحتاجون إليه من خبرة سياسية أو يستغلوه لتدعيم ملكهم وسلطانهم.

وعلى هذا النحو أتت التواريخ تدوي بصليل السيوف، وتقطر دماء، وتضج بالتهليل والتكبير، أو بالندب والعويل. وعلى هذا النحو أيضاً

---

(١) السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - القاهرة ١٣٤٩هـ، ص ١٧.

وردت التواريخ في شكل حوليات شحنت بكل حادثة اعتبرت جديرة بأن تسجل على صفحات التاريخ الغراء أو السوداء. فإذا بصفحات هذا التاريخ تكاد تكون خالية من وصف الإنسان في حياته اليومية، وإذا بك تلتمس الإنسان الذي تنبض فيه الحياة ويكسوه اللحم والدم، وتبحث عنه في بطون هذه السجلات القديمة، فلا تكاد تعثر له على أثر. وفي جملة واحدة، احتلت الحوادث - والغريب منها والشاذ بوجه خاص - كل مكان، وطردت في النهاية الإنسان.

وهذه النظرة القديمة لغاية التاريخ تغيرت الآن، وأصبح غاية التاريخ وهدفه أن يشرح لنا الإنسان، وأن يطلع الإنسان على حقيقة نفسه. ولا نعني بذلك مجرد معرفة الإنسان بمميزاته الشخصية التي تفرق بينه وبين غيره من الناس، وإنما نعني أن يعرف الإنسان طبيعته كإنسان، وما يستطيع أن يعمل وأن يقدم لبني جنسه، وهذا غير ممكن إلا إذا عرف الإنسان ماذا فعل في الماضي، وما هي الجهود التي بذلها فعلاً. وبذلك تصبح قيمة التاريخ في ذاته، أي في السعي إلى التوصل إلى الحقيقة[1].

ومن جهة أخرى، فإن الحوادث - بارزها وما خفي منها في الأعماق - ليس لها في حد ذاتها، من حيث هي حوادث مجردة، كبير قيمة مالم تتفاعل مع الفكر الإنساني.

إذ إن الحوادث لا تصبح ذات قيمة، إلا عندما ينطقها المؤرخ بعد

---

(١) د/ عبد الحميد العبادي، علم التاريخ، ص ٦ - ٧.

خرس، وذلك باستفساره إياها والحاجة في سؤالها عن قدر مسؤوليتها ومدى تأثيرها في تغيير وضع الإنسان وتوجيه مصيره. إن غاية التاريخ إذن وضالته هي تسجيل التجربة الإنسانية وفهمها، وأن يربط العلل بالمعللات والأسباب بالمسببات، وأن يجعل من كامل الواقع المتشعب والمترامي الأطراف شيئاً له نظامه وانسجامه، فالتاريخ بناء منطقي لعالم الإنسان.

هل التاريخ علم؟

يتجادل الناس فيما إذا كان يصح أن نعتبر التاريخ علماً من العلوم؟ فالمؤرخ الشهير بيورى J.B.Bury [1] (١٨٦١ - ١٩٢٧) أعلن عام ١٩٠٣ " أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل "، بينما نجد أن الفلاسفة الطبيعيين قد انبروا من ناحية ثانية ليثبتوا أن التاريخ أقل من العلم بكثير، هذا في الوقت الذي نجد فيه رجال الأدب قد انبروا ليثبتوا أنه فوق العلم بكثير.

أما الفلاسفة الطبيعيون فيرون أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم التي يشتغلون بها، من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتجديد، وأنه ليس من المتيسر أن تعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة، وأن الاختبار والتجربة أمران غير ممكنين في الدراسة التاريخية، وأن كل واقعة من وقائع التاريخ المسلم بها قائمة بذاتها، وأنه من أجل ذلك لا يتأتى تقسيم الوقائع على وجه الدقة، ولا يمكن أن نصل في التاريخ إلى شيء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية.

---

(١) أشهر مؤرخي إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين. مع أنه كان أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج، إلا أن أنفس مؤلفاته تتصل بتاريخ الإغريق والرومان البيزنطيين.

وأما رجال الأدب فيذهبونه إلى أن التاريخ سواء كان علماً أم غير علم، فهو لا ريب فن من الفنون، وأن العلم لايعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة، وأنه لا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها، فإذا ما أحياها الخيال، فهي بحاجة إلى براعة الكاتب وبلاغته[1].

ويتفق ابن خلدون مع رجال الأدب حول وصف التاريخ بأنه فن من الفنون، ففي فاتحة مقدمته عرف التاريخ بقوله:

" إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابهاعميق، فهو لهذا أصيل في الحكمة عريق ".

وهذه العبارة تدل على فهم واع لطبيعة التاريخ ووظيفته، إذ هو " في باطنه نظر وتحقيق "، أي تفكير في طبائع البشر وتكوين مجتمعاتهم،

---

(١) العبادي، علم التاريخ، ص ١٢ - ١٣.

وبحث عن أسباب الحوادث وتحليل لنتائجها، فهو على هذا - كما يقول ابن خلدون - " أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها خليق " والحكمة في المفهوم العربي هي أعلى مراتب العلم. ولكن يستوقف النظر أن ابن خلدون ينظم التاريخ في سلك الفنون لا العلوم. ومع أنه عاد فعقد فصلاً عن فائدة التاريخ سماه " في فضل علم التاريخ. . . "، إلا أنه يبدأ هذا الفصل ذاته بقوله موضحاً فوائد التاريخ لأهل عصره:

" اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ".

وهكذا اختلف العلماء والباحثون حول طبيعة التاريخ ووضعه بصفة العلم أو نفيها عنه. فهناك من يقول: إن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً؛ لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهد والفحص والاختبار والتجربة، وبالتالي لا يمكن استخلاص قوانين علمية ثابتة من التاريخ كما هو الحال في الكيمياء والفيزياء، وهذا - في نظرهم - يبعد التاريخ عن صفة العلم. أما رجال الأدب فيرون أن التاريخ سواء كان علماً أم لم يكن، فهو فن من الفنون يستعين بالخيال في كثير من الأحيان.

غير أن هرنشويري أن التاريخ ليس كالفلك علم معاينة مباشرة، ولا

كالكيمياء علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وأن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي، والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه منها عن الماضي والحاضر على السواء. ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار المؤرخ إلى أن يدرس ويفسر العامل البشري الإرادي الانفعالي حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية.

ويرى هرنشو أيضاً أن التاريخ من حيث هو علم يختلف أصلاً عن العلوم الطبيعية، إذ إنه ليس علم معاينة أو تجربة، ولكنه علم نقد وتحقيق. ومولد التاريخ ليست الأشياء التي مضت وانقطع وجودها، ولكن الأشياء التي لا تزال موجودة، سواء أكانت روايات عما وقع، أم بقايا أشياء وجدت، أن نتائج أحداث حدثت.

وإذا كان بعض الفلاسفة الطبيعيين قد أنكروا على التاريخ صفة العلم، باعتبار تعذر التوصل في التاريخ إلى شيء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية الثابتة، فقد رأى بعض المفكرين أن للتاريخ قوانينه الطبيعية، وحاولوا البحث عن هذه القوانين، فهناك القانون الإلهي الذي يقول به رجال الدين من المسلمين والمسيحيين، وهناك نظرية التطور والتقدم[1]. وهناك آراء الفيلسوف الفرنسي بودن Bodin الذي يرى أن التاريخ يعتمد على مشيئة الإنسان، ففي كل وقت تظهر قوانين وعادات

(١) عن تاريخ نظرية التطور والتقدم ومن كتبوا عنها، انظر:

Bury, J.B. : The Idea of Progress.

ونظم جديدة، كلها من صنع الإنسان، ويلاحظ قانوناً عاماً هو أنه ليس هناك انحطاط مستمر بل رقي تدريجي، وهناك آراء مونتسكيو Mon-tesquie (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وفولتير Viltarir (١٦٩٤ - ١٧٧٨) اللذين قالا بقيمة العوامل الطبيعية في تسيير التاريخ، فمونتسكيو يرى " أن الصدف ليست موجهة للعالم، فالظواهر السياسية كالظواهر الطبيعية لها قوانينها العامة " ، ويقول: بأثرالأخلاق في رقي الشعوب وانحطاطها، كما يرى أن هناك عوامل جغرافية ومناخية مؤثرة في مجرى الحياة الإنسانية. أما فولتير فيرى في كتابه " عصر لويس الرابع عشر " أن الإنسانية ولو أنها ترتكب كثيرا من الأخطاء، إلا أنها سائرة في طريق التقدم، وأن الناس يعملون بوحي قوانين إلهية لا يستطيعون النكوص عنها، وهذه القوانين ترمي إلى ما فيه صالح الفرد وصالح الجماعة.

وهناك كذلك نظرية المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي المشهور كارليل .T Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١) التي تقول: إن الأبطال هم الذين يصنعون التاريخ ويغيرون مجراه، ونظرية الفيلسوف الألماني هجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) التي تجعل الدين مفتاح النمو والتطور، فاليهودية في نظره تمثل الواجب، والكونفيوشية تمثل النظام، والإسلام يمثل العدالة، والبوذية الصبر، والمسيحية الحب.

وتعرض الفيلسوف وعالم الرياضيات أوجست كومت Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٣) لتفسير قوانين التطور، فقال: إن التاريخ تسيره الأفكار، والإنسان مر خلاله في ثلاث مراحل : المرحلة الأولى: مرحلة تفسير الظواهر الطبيعية بأنها ناشئة من عمل آلهة خياليين، ثم مرحلة تفسر

هذه الظواهر بمعنويات مجردة، والأخيرة محاولة فهمها بالطرق العلمية، وذلك بالملاحظة والتجريب.

ولما وضع كارل ماركس Carl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) نظريته المادية في تفسير التاريخ، قال: إن تطور الجماعة متوقف على الظروف الاقتصادية وحدها. ولقد بنى ماركس نظريته على أساس فكرة كفاح الطبقات في سبيل الرقي المادي، ذلك الكفاح الذي ينتهي - في نظره - بانتصار الطبقة الأكثر عدداً والأسوأ حالاً على طبقة الأثرياء القليلة العدد. ويسمي ماركس ذلك قانون التطور الاجتماعي، ويظل ذلك التطور مستمراً حتى يتلاءم نظام الملكية مع نظام الإنتاج، أي إلى ذلك الوقت الذي تصير فيه الملكية اشتراكية وتنتصر فيه طبقة العمال انتصاراً حاسماً. ولقد سبق كارل ماركس إلى الإشادة بأهمية العوامل الاقتصادية آدم سميث وأتباعه من أمثال ريكاردو.

ويرى المؤرخ الإنجليزي هنري بكل Buckle أن هناك عوامل كالموقع الجغرافي والجو والتربة والوسط الاجتماعي تحدد أعمال الإنسان، ويعزو تقدم البشرية إلى العقل لا إلى العاطفة والأخلاق. ومن أهم من قال بوجود قوانين للتاريخ: العالم الأمريكي دربير Draper. ففي كتابه " تاريخ تطور أوروبا الفكري "

History of the Intellectual Development of Europe

يمثل دربير المجتمع بالفرد، ويرى أن التقدم الاجتماعي خاضع لقوانين طبيعية كالنمو الجسماني، فحياة الفرد ما هي إلا حياة مصغرة من حياة الشعب، والاثنان لهما طفولتهما وشبابهما وشيخوختهما.

وأيا ما كان الأمر، فإن محاولة بعض المؤرخين اعتبار التاريخ علماً صرفاً ناشئة من أن الاستقراء والتجريب قد شمل كل العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر. والاستقراء والتجريب لا يمكن تحقيقهما في التاريخ، لأن العلم الطبيعي يبحث في أشياء هي في متناول الإنسان يستطيع أن يقلبها على وجوهها المختلفة ويجرى تجاربه كما يريد. فالعلوم الوصفية والطبيعية دقيقة؛ لأن البحث موضوعي صرف. أما التاريخ فهو من العلوم الإنسانية، وكل العلوم الإنسانية غير دقيقة؛ لأن حياة الإنسان لا يمكن قياسها ولا وصفها بالدقة نفسها التي نستطيعها في العلوم الوصفية، فنحن لا نستطيع قياس عقلية الإنسان ولا عواطفه ولا معلوماته قياساً دقيقاً، بل وأكثر من هذا أن الإنسان لا يستطيع أن يتكهن تماماً بما في نفوس هؤلاء الذين يشاركونه المعيشة، فشتان بين ما يجده الإنسان في نفسه وبين ما يصفه للغير، فكيف إذن يعرف الإنسان ما في نفوس الناس الذين مضوا، وكيف يقدر دوافع مافي نفوسهم وظروفها تقديراً دقيقا ؟ ومن جهة أخرى، فإن الإنسان يفسر أعمال الناس وفق شخصيته ومزاجه وثقافته، فلا يرى في الأشياء إلا ما يحب أو يستطيع أن يراه فيها. ومن جهة ثالثة، هل لدينا مقاييس ثابتة نحكم بها على أعمال الناس؟

ثم إن التاريخ يدرس حقائق الإنسانية الماضية، وهذه الحقائق ليست الآن في متناول أيدينا نقلبها على وجوهها المختلفة، وهي لن تعود ذاتها مرة أخرى. وما الذي يدلنا على الإنسانية الماضية؟ مجرد آثار ومخلفات تعطينا فكرة عامة وعلينا أن نكمل التفاصيل باستعمال الخيال. وهناك فعلاً حلقات مفقودة في التاريخ؛ لأن كثيراً من الحقائق قد عفا دون أن تترك وراءها أثراً،

وكلما توغلنا في الماضي كلما قلت مصادر التاريخ وكلما غمضت. ثم من الذي كتب أو أنشأ هذه الآثار أليسوا من بنى الإنسان لهم ميولهم وأغراضهم الخاصة؟ وهذه المصادر فوق ذلك لا تستلزم معرفة بالتاريخ فحسب، بل معرفة تامة باللغات وطرق الكتابة والسياسة ونظم الاقتصاد والاجتماع مما جعل البحث في التاريخ عسيراً. ثم بعد ذلك هل دوَّن القدماء كل شيء مهم في حياتهم، وهل دونوه بدقة؟ إن ذاكرة الإنسان وملاحظته للأشياء قاصرة فنحن نختلف اختلافاً كبيراً في رواية حادث رأيناه بالأمس. وحتى فكرة التقدم نفسها لا يسلم بها الجميع، لا سيما في الناحية الروحية، وها هي الأديان ذاتها تذكرنا بأن الإنسان خرج من حياة نعيم وسرور دائم وعيش موفق إلى حياة كلها تعب وشقاء لا ينتهى، ولا يدري بعض المفكرين (مثل دافيد هيوم[1] Hume) ما إذا كان العالم لا يزال في شبابه أو هو في طريق الفناء؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو العلم؟ يقول هكسلي T.H.Huxley : " إن العلم هو كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط "، و يقول الكسندر هل A. Hill : " كل معرفة معقولة فهي علم "، و" أن العلم معرفة روعيت فيها الأوضاع الصحيحة "، ويرى كارل بيرسون K.Pearson " أن وظيفة العلم تنحصر في تقسيم الوقائع، ومعرفة تتابعها، وأهميتها النسبية ".

وعلى كل حال، فإن العلم بصفة عامة لا يخرج عن كونه محاولة

(١) دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) فيلسوف ومؤرخ واقتصادي بريطاني كبير. كتب في المعرفة والإلهيات والأخلاق والتاريخ والاقتصاديات كتابات لا يزال بعضها مرجعاً للباحثين في هذه العلوم.

لتركيز الجهد حول شيء لا نعرفه في محاولة جادة لمعرفته والوقوف على حقيقته، فالعلم إذن هو الكشف عن حقيقة الأشياء. والتاريخ يبحث عن أسباب تسلسل الظواهر، ويحاول ربطها إلى بعضها. وتعليلها تعليلاً يقبله العقل. ولكن هذا لا يفضي إلى وضع القوانين الثابتة؛ لأن المؤرخ لا يجرد، والتاريخ يتناول أحداثاً مستقلة لا تقع لأسرة واحدة، ومن هنا لا يستطيع المؤرخ أن يستخلص منها نواميس عامة شاملة.

ومماسبق نستطيع أن نقول: إن التاريخ علم وفن وفلسفة، فهو علم من حيث إنه قائم على أساس صحيح في البحث والتفكير وقراءة المصادر الأصلية ومناقشتها والحكم عليها، وبعبارة أخرى: إن التاريخ يعتبر علماً من حيث المنهج، فالمؤرخ يمضي في دراسته ساعياً جهده إلى توخي الحقيقة، طارحاً وراء ظهره كل هوى في نفسه، وكل افتراض سابق، قادراً آخر الأمر على التصنيف والتبويب وحسن العرض. وهو فن وفلسفة، لأنه يستلزم من المؤرخ معرفة مواد كثيرة، وأن يكون ملماً بأمور العالم. والعلم المجرد لا يمكن أن يعطينا عن الماضي سوى عظامه النخرة، ولا بد من الاستعانة بخيال المؤرخ لكي يكسو تلك العظام لحماً، ويحيلها إلى شيء ينبض بالحياة، وضروري عنده القدرة على اللغة والتعبير وحسن تصوير الحقائق، فهو كالمصور أمامه الحياة الاجتماعية، وكما أن المصور يصور الناحية من الطبيعة التي تروقه بالطريقة التي يختارها، فكذلك المؤرخ. وطريقة البحث التاريخي، ولو أنها علمية، إلا أنها في الوقت نفسه فنية وشخصية، لأن دراسة التاريخ ليس معناها فقط كشف الأحداث التي وقعت في الماضي، والتي تقع حالياً، ثم التنبوء على هدى ذلك وفي ضوئه بماسوف يقع في المستقبل بل حسن تقدير ذلك كله.

موضوع علم التاريخ:

يتساءل المؤرخون فيما بينهم عن موضع علم التاريخ. هل التاريخ سيرة الملوك والأمراء، أو هو سيرة الشخصيات الكبيرة والأبطال الأفذاذ الذين قادوا الأمم وغيروا مجرى حياة الشعوب؟ هل التاريخ قصة لحياة طبقة من الطبقات دون سواها؟ هل التاريخ دراسة للناحية السياسية فحسب، أم هو شامل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والفنية للحياة الإنسانية؟

والواقع أن التاريخ ليس مقصوراً على الناحية السياسية أو الاقتصادية، فنواحي نشاط الإنسان أوسع من ذلك، وعلى المؤرخ أن يهتم بهذه النواحي حسب قيمتها في توجيه حياة الشعوب. كما أن التاريخ ليس مقتصراً على حياة الأبطال والملوك، فحياة الشعوب والطبقات ليست بأقل أهمية.

ومع ذلك، يرى بعض المؤرخين أن الموضوعات والقضايا السياسية هي أهم الموضوعات التي ينبغي على المؤرخ أن يبحثها، إذ إن العامل السياسي هو العامل الأكثر تأثيراً في أحداث التاريخ والأجدر بالاهتمام والدراسة، كما أن القضايا الاقتصادية تتبع القضايا السياسية، وليس العكس هو الصحيح، وهذا يخالف رأي الماديين ووجهة نظر كارل ماركس التي تغالي في أهمية العامل المادي. وكما يقول الفيلسوف برتراندرسل، فإن القوة الاقتصادية تقوم على القوة السياسية، وليس شرطاً أن يكون العكس.

ويعتقد بعض أنصار المدرسة السياسة أن أهم ظاهرة في التاريخ السياسي هي نشأة القوميات وحركات الوحدة بين الجماعات والدويلات

والأقطار من أجل قيام كتل سياسية أكبر، مثل الوحدة الإيطالية أو الاتحاد الألماني أو الأوروبي، وبالنسبة لنا الوحدة العربية، فكل الدول مرت بمرحلة الاتحاد، وبدون هذه الحركة ما قامت كثير من الدول، وسيظل الاتجاه نحو الاتحاد في كتل أكبر مستمراً، سواء بالاتحاد المباشر أو في شكل أحلاف وكتل وتكتلات. وبعض هذه التكتلات يفشل مثل الكومنولث البريطاني وبعضها ينجح مثل السوق الأوربية المشتركة.

ولا حاجة للقول بأن التقدم الاجتماعي والاقتصادي يواكب اتساع رقعة الاتحادات السياسية، فبقدر ما تزيد مساحة الدولة، بقدرما تزيد قدرتها المادية وتتحسن أوضاعها الاجتماعية وتفرض وجودها بين الأمم. ولذلك تسعى الدول من أجل زيادة طاقاتها، فتبحث عن وحدة أشمل وأعم، خاصة إذا ما وجدت الدولة أن قدراتها محدودة لو بقيت بمعزل عن غيرها. وقد ساعد التطورالتكنولوجي الحديث على عملية الاندماج والاتحاد أو التحالف، فسهولة الانتقال بين أرجاء الدول هدمت الحواجز النفسية القديمة التي كانت تفصل بين الشعوب، وسهلت إقناعها بمزايا الاندماج في اتحاد أكبر. كذلك فقد شجعت التكنولوجيا الحديثة الدول الصغيرة على ضرورة البحث عن محيط أكبر، سواء من أجل الصالح الاقتصادي أو العسكري، خاصة أنه كلما كانت رقعة الدولة أكبر كلما كانت أكثر انتاجاً وأغنى اقتصادياً وأكثر قوة.

إن التحالفات والاتحادات وحركات الاندماج كانت - وستظل - أساس العلاقات الدولية، لأن قيامها ليس بالأمر السهل، بل عملية شاقة وعسيرة، وهذا هو الحمل الذي تنوء به السياسة. ومن ثم، فعلى الباحث

في التاريخ أن يساهم بقدر الإمكان في اختيار موضوعات تساهم في هذه القضية السياسية العسيرة. ومن حق المؤرخ أن يهتم بما يدور حوله في وطنه، ومن حقه أيضاً أن يتطلع إلى موضوعات تاريخية تهم البشرية كلها، وقديما قال شاعر الرومان الكبير ترنتيوس Terentius : " إن كل ما يهم الإنسان يهمني أيضا " .

والتاريخ القديم مليء بأحداث الاتحادات السياسية أيضاً، بل إن فكرة الدولة السياسية من ابتكار العصور القديمة. فقد حققها قدماء المصريون عام ٣١٨٠ ق.م، وعرفها السومريون والبابليون في شكل دويلات المدن التي نقلها الإغريق عنهم. حتى في المرحلة الأولى للحضارة، اتحد الناس في شكل القبيلة والقرية، لأنهم أدركوا أن الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يحقق شيئاً، انما بالتعاون يستطيعون إقامة الأسوار والسدود والإهرامات كما تشهد بذلك الآثار، التي تدل على أن المجتمع كان منظماً تنظيماً جيداً. كما أن اتحاد القرى معا، أو تزايد أهمية قرية سياسياً، أدى إلى خلق المدينة التي يعتبرها المؤرخون أول ثورة حقيقية في تاريخ الإنسان. وبعد قيام المدن، اتسع الاتحاد السياسي ليشمل إقليماً كبيراً تتحكم فيه مدينة أو ما يعرف بالدولة السياسية.

وفي العصر الحديث أيضاً نرى نماذج من حركات الوحدة، مثل: الوحدة الإيطالية والاتحاد الألماني وغيرهما من حركات الوحدة أو التقسيم التي خلقت الدول السياسية التي نراها اليوم. ومن ثم، فإن العامل السياسي والعلاقات السياسية سيظل يشكل العامل الأكبر في حركات التاريخ.

وبالرغم من ذلك، فإن هناك فريقاً من المؤرخين يهاجمون الاهتمام بالموضوعات السياسية، إلا أنهم لا ينكرون أهمية التاريخ السياسي. وهم عادة يهاجمون جوانب القصور في دراسة الموضوعات السياسية أكثرمن مبدأ الدراسة ذاتها، فيقولون: إن السياسة تشوه التاريخ، وكثيراً ما استخدمت الدراسات السياسية في التاريخ كوسيلة لأغراض وأهداف بعيدة عن التاريخ، إذ إن الباحث سوف يسعى لاستخدام العامل السياسي ليتطابق مع وجهة نظره. ويقول آخرون: إن التاريخ تصنعه الأيدي العاملة وليس أفواه السياسيين. ويقول فريق ثالث: إن التاريخ السياسي هو تاريخ السلطة التي تفرضها جماعة من الناس على الغالبية العظمى من شعبهم؛ لأن تلك الجماعة تملك القوة، أو لأن جماهير شعبهم تنقاد بلا وعي وراءها، خوفاً منها أو عبادة لها، ومن ثم فليس للجماهير المغلوبة رأي في اتخاذ القرار السياسي. ولكن يمكن الرد على ذلك، بأن القرار السياسي الذي تصدره الجماعة الحاكمة - حتى وإن كانت أقلية - إلا أنه يؤثر تأثيراً كبيراً على الغالبية، والمؤرخ السياسي إذا أحسن اختيار موضوعه ودرسه بالمنهج السليم، فلسوف يثبت عدم جدوى هذه الانتقادات، بل على العكس إنه يستطيع أن يستفيد من النقد ومن التطور في الدراسة ليجعل من نفسه باحثا يفوق رواد مدرسة التاريخ السياسي التي ظهرت في القرن التاسع عشر، خاصة وأن القضايا السياسية أصبحت في النصف الأخير من القرن العشرين أكثر تعقيداً وأجدر اهتمامًا بالدراسة من قضايا القرن التاسع عشر.

والحقيقة أن القرن التاسع عشر قد شهد جدلاً عنيفاً بين المؤرخين حول تفضيل السياسة على الاقتصاد أم الاقتصاد على السياسة خلال عملية

البحث التاريخي. ونجد أعلام المؤرخين من أمثال ليوبولد فون رانكه Le-opold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) وإدوارد فريمان Edward Free-man (١٨٢٣ - ١٨٩٢) وجون سيلي Hohn Seeley (١٨٣٤ - ١٨٩٥) يدافعون عن أولوية العامل السياسي. فمثلاً دافع رانكه عن العامل السياسي؛ لأنه يمثل الجانب الإنساني أو البشري في حركة التاريخ ويوضح دور الفرد في توجيه الأحداث، ولكنه قال: إن التاريخ يجب أن يدرس لذاته وليس لأي غرض نفعي آخر، ومن ثم ركز على دراسة الوثائق بحثاً عن التاريخ. وكان من نتائج ذلك أن جاء اهتمام رانكه منصباً على التاريخ السياسي والعسكري، ولم ينتبه كثيراً إلى النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وقد سار على نهج رانكه كثير من المؤرخين أبرزهم بيوري J.B. Bury ، وهو أشهرمن كتب عن تاريخ بلاد اليونان القديمة.

ولما نشر كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) كتابه الشهير " رأس المال " Das Kapital (١٨٦٧) وكتابه " نقد للاقتصاد السياسي " ، ناقض الرأي السابق، وطالب بإعطاء الأولوية لدراسة العامل الاقتصادي، وذلك لأن الأحوال الاقتصادية لأي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكري. وإذا أردنا أن نفهم أي مجتمع من ناحية نظامه السياسي وحياته الثقافية والفكرية وإنتاجه الفني أو حتى طبيعته الدينية، فلننظر أولاً إلى طبيعة نظامه الاقتصادي، وأن الذي يقرر طبيعة هذه الجوانب هو الإنتاج المادي ونوعه وأساليبه، ومن ثم فهو المحرك للعامل السياسي.

ومن المؤكد أن هذه المغالاة لأهمية العامل الاقتصادي كانت رد فعل

تصحيحي ضروري للفساد والظلم والانهيار الاجتماعي نتيجة لتحكم الإقطاع والكنيسة ورأس المال في المجتمعات الأوروبية إبان القرن التاسع عشر، والتي لم يعد لها وجود بعد قيام المجتمعات ذات الاقتصاد المخطط والتي قضت على مصادر الظلم القديم.

ولا يخفى أن التفسير الاقتصادي (أو المادي) للتاريخ لا ينطبق إلا على العصر الحديث، حيث أصبح الإنتاج هو الشغل الشاغل للمجتمعات وأصبح التفكير الاقتصادي صفة عامة في تحليل الأحداث، إلا أنه لا يمكن أن يطبق على أحداث التاريخ القديم، حيث كان لا يوجد فكر اقتصادي معقد بمثل هذه الدرجة، بل كان يوجد أحداث سياسية بكل مشاكلها وأبعادها مثل قضية الاتحاد والتكتلات، فأحداث التاريخ القديم منجم غني للأحداث السياسية بكل أشكالها وتطوراتها، وكما يقول أميل روستوفتزف: " لا يمكن لأحد أن يفهم الحاضر ما لم يكن له دراية وفكرة واضحة عن تطور الأحداث في العالم القديم ".

ومن جهة أخرى، لا يمكن تطبيق التفسير الاقتصادي على أحداث التاريخ في العصور الوسطى الأوروبية؛ لأن رجال الدين والبابوات والأباطرة هم الذين كانوا يسيرون أحداث التاريخ، كما أن القادة الذين قادوا أوروبا من ركود العصور الوسطى إلى آفاق عصر النهضة والكشوف الجغرافية والتقدم الفكري والعلمي كانوا فلاسفة سياسيين وأصحاب آراء ونظريات، ولم يكونوا قوى اقتصادية منتجة.

ومن جهة ثالثة، فإن الحروب في العصور القديمة، وخلال العصور الوسطى، بل وفي العصور الحديثة، كانت صراعاً سياسياً في الدرجة

الأولى، ولا شك أن العامل العسكري الحاسم، هو عامل سياسي وليس عاملاً اقتصادياً، ويقول برتراند رسل فيلسوف العصر: " إن المشكلة الأساسية في التاريخ القديم، كما في عالمنا الحديث، هي سيطرة القوى السياسية " . وفضلاً عن ذلك، فلم تكن الحروب في العصور القديمة ولا الوسطى نتيجة لصراع الطبقات كما يفسر الماديون ظاهرة الحروب، بل صراعاً بين قوى سياسية: كل يريد أن يفرض إرادته، مثل الحرب بين الاسكندر الأكبر والملك الفارسي دارا الثالث، أو بين روما وهانيبال القرطاجني، وكان الذي حدد النصر في هذه المعارك هو القوة العسكرية التابعة للقوة السياسية، وليس العامل الاقتصادي، فالإسكندر الأكبر كان فقيراً بالنسبة لدارا الثالث، وكذلك كانت روما بالنسبة لقرطاجة صاحبة الإمبراطورية التجارية والبحرية الغنية. ثم لما خرج العرب من جزيرتهم بعد ظهور الاسلام لنشره في الأقطار المجاورة، وانتصروا على إمبراطوريتين كبيرتين غنيتين بمواردهما الاقتصادية، هما الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، فهل يرجع هذا الانتصار لقوة العرب الاقتصادية أم لحماسهم الديني المنقطع النظير؟

وعلى كل حال، فإن المعلومات التي تخرجها معاول الأثريين، والجدل الذي أثاره أنصار المدرسة المادية في تفسير التاريخ، يجب أن تلفت أنظارنا إلى أهمية التكنولوجيا وآلات الإنتاج كعامل له أثره في أحداث التاريخ السياسية، وعلى الباحث أن يستفيد من الجدل الذي أثاره الفيلسوف والمؤرخ جورج تريفليان George Trevelian (١٨٧٦ - ١٩٦٢) رائد مدرسة التاريخ الاجتماعي، التي تجمع بين العوامل المادية والسياسية في

قالب اجتماعي، وعلى الباحث أيضاً أن يضع في ذهنه مقولة اللورد أكتون Lord Acton (١٨٣٤ - ١٩٠٢) الذي عين أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج في أواخر حياته، وهي: " أن بعض الأحداث السياسية مرجعها أفكار ليست سياسية "، أي أنه يجب ألا تغفل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية عند دراسة القضايا السياسية، والتاريخ السياسي لا يجد تعارضاً مع التاريخ الاجتماعي، وهو ما ينادي به تريفليان، فالدولة هي المجتمع، والمجتمع هو الدولة، أو بمعنى آخر الدولة هي الإطار، والمجتمع هو الصورة التي تملأ ذلك الإطار.

وخلاصة القول: إن موضوع التاريخ - كأي علم آخر من العلوم - هو الكشف عن نوع معين من الحقائق، وهذا النوع هو جهود الإنسان وإجازاته في الماضي، ويقول آخر: إن التاريخ هو العلم الذي يحاول الإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بما بذلته الإنسانية من جهود منذ كانت، سواء في النواحي السياسية أم الاقتصادية أم الاجتماعية أم الثقافية أم الفنية، فالتاريخ يعرض أمامنا ثمرات العقل الإنساني من علم وأدب وفن، ويرينا ما مرت به الدول والشعوب والطبقات والأفراد من محن ومصاعب، وما سمت إليه من مجد وعظمة. وباختصار يوضح لنا التاريخ تطور الإنسانية السياسي والاجتماعي والفني.

أهمية التاريخ ومكانته بين العلوم:

لا شك أن التاريخ يحتل بين فروع المعرفة الإنسانية مكاناً بارزاً، وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التي تصدر في الشرق والغرب على السواء. وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، كانت المؤلفات في التاريخ

وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخي وآثار وسياسة ومذكرات تكوِّن خمس المكتبة العالمية. وفي أيامنا هذه، ورغم اتساع ميادين المعارف وغلبة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها، لا زالت مؤلفات التاريخ تحتل جانباً ضخماً مما ينشر كل عام، وخاصة إذا أضفنا إليها ذلك النوع الجديد من الكتب الذي يؤلفه نفر من الصحفيين والأدباء عن حوادث التاريخ الجاري Current History ورجاله، الأمر الذي يدل على أن التاريخ لا زال من أكثر فروع المعرفة الإنسانية قرباً إلى قلوب الناس.

ومع ذلك، فما زالت حقيقة " التاريخ " ومكانته بين العلوم وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة. وقد عرض شمس الدين السخاوي (٨٣١ - ٩٠٢/ ١٤٢٧ - ١٤٩٧) في كتابه المشهور " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ " بعض جوانب مشكلة علم التاريخ عند المسلمين، وأعطانا صوراً من المآخذ التي كان علماء عصره يوجهونها إلى أهل التاريخ وحاول الدفاع عنها، وهو لم يوفق لا في العرض ولا في الدفاع، فقد كان أقصى ما قاله في مدح التاريخ أن جعله أحد العلوم المساعدة لعلم الحديث.

وتتلخص آراء النقاد لعلم التاريخ من المسلمين في أنه علم لا ينفع، إذ هو يشغل الإنسان بأخبار الماضين وأساطير الأولين عما ينفع الإنسان في أخراه من علوم الدين، ثم إنه يعرض صاحبه للكذب عن علم أو غير علم، فهو لا يدري إن كانت الأخبار التي يسوقها صحيحة أم غير صحيحة. ورأى بعض نقاد التاريخ من المسلمين أنه غيبة؛ لأن المؤرخ يتناول الغائبين بالذم

والنقـد ويكشف عن عـيـوبهم ، والإسـلام ينهى عن الغـيـبـة ، ثـم إن بعض المؤرخين يقعون في أعراض الناس ويسيئون إليهم ، ولهذا أحجم الكثيرون من أهل الخلق عن الكلام في التاريخ حفاظاً على خلقهم .

ولكننا يجب أن نعذر السلف من أهل الفكر فيما وجهوه للتاريخ من نقد ، لأنه ما زال بين أهل عصرنا من كبار المفكرين - والفلاسفة خاصة - من ينكرون وجود التاريخ أصلاً ، ويقولون : إن التاريخ يعنى بما مضى وانقضى من الأحداث ، وما دامت قد مضت ، فهي غير ذات وجود حقيقي ، وهي لا تبعث إلى الحياة إلا في ذهن المؤرخ . ويحلو لكثير من أهل العلم أن يرددوا قول هنري فورد : " التاريخ لغو History is bunk " .

ولكن التاريخ ليس لغواً ، فهو لا يقتصر - كما سبق القول - على أخبار الماضين وأساطير الأولين ، بل هو يدرس التجربة الإنسانية أو جوانب منها ، ويسعى إلى فهم الإنسان وطبيعة الحياة على وجه الأرض .

ومع ذلك ، فقد يتشكك البعض في جدوى الاهتمام بالتاريخ ، خاصة في عصر كثرت فيه المتغيرات والاضطرابات ، ووصل الإنسان إلى القمر وصارع الكواكب والنجوم . وهؤلاء قد يتساءلون : أليس من الأجدى أن ننسى ذلك الماضي وننظر إلى حاضرنا ومستقبلنا؟

والواقع أنه من السـهل الرد على هذا التـشكك والتـسـاؤل ، بأن الاضطراب الذي نعانيه والتخلص من أدران الماضي وأفكاره ، لا يمكن أن يعالج أو يزال إلا بالنفاذ إلى جذوره العميقة واستئصال أسبابه البعيدة ومعرفة العلل والأسباب وطبيعتها ومداها ، فكل مشكلة من المشكلات التي

تعترض الإنسانية لها جذورها وأسبابها المغروسة في التراث الذي ورثته من الأجيال السابقة. ونحن العرب أحرص الناس على تلك الحقيقة؛ لأن التاريخ يطل عليها من نوافذ متعددة. وعندما نتساءل عن أسباب وعلل النكبات والمآسي والأخطاء التي حدثت لنا، نجد أنفسنا نرجع - بوعي أو بدونه - إلى التاريخ وكتب التراث نقرأ فيها ونستنتج. ولعل أبلغ دليل على ذلك أن العالم الفيلسوف ابن خلدون كتب مقدمته الرائعة - التي تعتبر آبرز آثار التفكير التاريخي والاجتماعي - عندما وجد العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر قد انقسم إلى دول متناحرة تغير عليها جحافل الغزاة من التيموريين وغيرهم، فأثار ذلك في نفسه تساؤلات كثيرة عن نشوء الأمم وتطورها وتداعيها.

ولكي ندرك أهمية الماضي وضرورة دراسة التاريخ، والاهتمام والعناية بتحقيق التراث التاريخي، فلنفرض جدلاً أننا استطعنا بطريقة أو أخرى أن نقطع صلتنا بالماضي قطعاً تاماً، أي نحرق دور الكتب وندمر كل آثار العمران الراهنة، ثم ننظر إلى حال الإنسان ومصير الحضارة بعد ذلك، الحقيقة أن الإنسان سوف يحاول عندئذ أن يعود لكي يبدأ من جديد، بعد أن فقد خبرات الماضي التي هي تراث الأجداد منذ آلاف السنين. ولهذا لا غنى لإنسان عن دراسة ماضيه ومعرفة تاريخ تطوره وأعماله وآثاره وأوجه النشاط الإنساني ومقومات الحضارة.

وكذلك يلاحظ أن كل عالم أو أديب أو فنان لا غنى له في عمله أو فنه عن أخذ الماضي بعين الاعتبار والتأثر به إلى حد قريب أو بعيد. فالطبيب عندما يعالج الداء، يبدأ أول ما يبدأ بسؤال مريضه عن نشوء المرض وتطوره

وعما اعترى المريض من علل سابقة. والكيميائي عندما يخضع مادة من المواد لتجربة معينة، يدرس تغيرها من حال إلى حال، من " ماض " إلى " حاضر " أو من " حاضر " إلى " مستقبل ". وعالم الاجتماع لا يستطيع دراسة المشكلات الاجتماعية التي يعالجها دون النظر إلى الجذور التي نبتت منها والتغييرات التي طرأت عليها. وهكذا الحال في العلوم الأخرى: الطبيعة منها والبشرية، فكلها تهتم بالماضي. وحتى الأديب والفنان لا يستطيع أن يتعرى من خبراته السابقة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذي نشأ فيه والتقاليد السائدة في عصره.

ومن الخطأ الظن بأن دراسة التاريخ ليس لها فائدة، لأنه لو لم يكن مفيداً ما بقي علماً من أهم العلوم الإنسانية، " فالناس " - كما قال كونفيوشيوس حكيم الصين في القرن السادس ق.م - " منذ قديم الزمن يدرسون (الماضي) بهدف تطوير أنفسهم ". إن دراسة التاريخ تعلم الناس كيف يلتقون ويتعرفون على سالف الأجداد وأفكارهم، وذلك رغم آلاف السنين التي تفصل بينهم. فمن الحقائق المسلم بها أن طلب " المعرفة " غريزة عند الانسان، وكما تملي المعدة مثلاً على صاحبها أن يبحث عن الطعام، يملي العقل على النفس أن تدفع صاحبها للفضول وطلب المعرفة، سواء عن الماضي أو الحاضر. ويرى أرنولد توينبي Toynbee أن دراسة تاريخ الشعوب ذات الحضارات فائدة لا تقدر بالنسبة لطالب المعرفة، وأن أهم ما تتميز به مساهمة المؤرخ في التراث الإنساني أنه يقدم لنا صورة لإبداع الخالق في خلقه، وفي عالم الإنسان ذي الحركة الدائبة والتي لا تتوقف. فالدارس للتاريخ يرى دون غيره كيف تتحرك حضارات العالم.

ولقد سبقت الإشارة إلى ابن خلدون عقد في مقدمته فصلاً عن فائدة التاريخ سماه " في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالطات وذكر شيء من أسبابها " . وخلاصة رأيه أن التاريخ ينفع في العظة والعبرة، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم، وندرس سير الأنبياء لنتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا عن المزلات ومواطن الضرر. ولهذا نجد ابن خلدون يسمي تاريخه الكبير " كتاب العبر " .

وجمع السخاوي في " الإعلان والتوبيخ " طائفة من أحسن ما قال العرب في فضائل التاريخ، ومجملها أنه يساعدعلى تحقيق ميلاد رواة الأحاديث النبوية ووفاتهم، فيعين هذا على التثبت من صحة رواة الحديث أو عدم صحتهم، ويقدم لنا مادة نافعة في تفسير القرآن الكريم، ثم هو إلى جانب ذلك حافل بالعبر والمواعظ : " وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم، وأسباب مبادئ الدول وإقبالها، ثم سبب انقراضها، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها في العالم، غزير النفع كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله ويصير مجرباً غير غر ولا غمر . . . وإنه أيضاً جم الفوائد كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار الى التشبه والاقتداء بأربابها " .

وهكذا كانت أعظم فوائد التاريخ في نظر دارسيه من العرب، هو أنه مدرسة حافلة بالعبر والمواعظ، بمعنى أنه يمكن الحصول من وعاء التاريخ

على حلول جاهزة لمشاكل متكررة هي بعينها أو نظائرها، وذلك تطبيقاً لقول ابن الأثير " إنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره "، أي حسب العبارة التي شاعت، وما زالت شائعة في أذهان الكثير من المعاصرين، وهي " إن التاريخ يعيد نفسه ".

ولكن هذه النظرة للتاريخ باعتباره مدرسة للوعظ ووعاء للحلول الجاهزة لم تعد قائمة اليوم. إذ يجمع المؤرخون المحدثون وجميع أهل الفكر على أن تلك النظرة إنما هي وهم وخطأ محض، وسوء فهم للتاريخ. ومن العجيب أن ابن خلدون - بفضل ما أوتي من عبقرية، وملاحظة صائبة، ودقة بصيرة، وقدرة نادرة على التحليل - قد اهتدى منذ قرون خلت إلى أن التاريخ لا يعيد نفسه، فكتب يقول:

" من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي، شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ومحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر. إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول. سنة الله التي قد خلت في عباده ".

ويعتمد ابن خلدون في استنتاجاته هذه على الحضارات العديدة البائدة أو القائمة في زمانه، كحضارات الفرس الأولى، والسريانيين،

والنبط، والتبابعة، والقبط، والروم، والفرنجة، والترك، والبربر، وسائر العجم، والعرب من مصر وغيرها. فهذه الحضارات كلها تقيم الدليل القاطع على أن التاريخ ليس تكراراً وعوداً متواصلاً على بدء، إنما هو تطور وخلق. وهذا الخلق لايزال يرتقي في سلم " التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة ".

وإذا كان الأمر كذلك، أي أن التاريخ لا يعيد نفسه وليس وعاءً ممتلئاً بالحلول الجاهزة للقضايا والمشكلات، فهل يفيد التاريخ في حل مشاكلنا اليومية أو السياسية؟ أو هو لا يزيد على أن يكون عبئاً يثقل الذاكرة، أو في أحسن الحالات إنما هو زينة يتحلى بها الرجل المثقف والأديب الأريب؟

والحقيقة أننا إذا كنا لا نعتقد اليوم بأن التاريخ يمدنا بحلول، لأنه لا يعيد نفسه، إلا أننا نعلم علم اليقين أنه يعيننا إعانة جذرية على فهم الحاضر أو واقعنا المعاصر، بل إنه لا فهم لهذا الواقع مالم نستعين بنور التاريخ الذي لا يعوض، والفهم الصحيح شرط أساسي لالتماس الحل الناجح. ومن ثم، فإن التاريخ مدرسة لتخريج الإطارات السياسية، أو على الأقل أنه لا غنى عنه في تكوين الرجل السياسي الذي بيده الحل والعقد. ولذلك يقول المؤرخ الإنجليزي جون سيلي Seeley : " إن التاريخ هو مدرسة السياسة "
History is the School of statesmanship

والسؤال الذي يجب أن يطرح: كيف يتأتى لصاحب الأمر أن يفهم العالم المحيط به، وتوازن القوى المتصارعة حتى يحسن التصرف والسير بأمته في طريق السلامة، إذا ما جهل كيف تكون هذا العالم في أرحام

التاريخ القريب منه والبعيد؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة على الإطلاق، فصاحب الأمر أو الحاكم أو الرجل السياسي من أشد الناس حاجة إلى أن يفهم التاريخ ويعي حقائقه لكي يقود سفينة أمته وسط عالم الأنواء والصراعات إلى بر السلامة، ولكي يتفادى أن يسير بها عكس التيار التاريخي، فيرهق نفسه ويرهق مواطنيه معه، دون أن يصل بهم إلى شيء، أو يصل بهم في النهاية إلى الفشل والكارثة. وليس معنى ذلك أن صاحب الأمر أو رجل السياسة ينبغى أن يكون مؤرخاً، لأن التاريخ تخصص يغني - كغيره من العلوم - الإعمار، ولا يترك المجال للاشتغال بما سواه. ولكن يجب أن يجد القائد السياسي من بني وطنه وحوله، من المؤرخين الأكفاء، ومن الدراسات التاريخية القيمة، ما ينير له السبيل، ويمكنه من إدراك الوضع بوضوح، حتى يحسن التصرف ويحقق النجاح، لا لأنه - كما توهم القدماء - يستطيع أن يغترف حلولاً جاهزة من الماضي يطبقها على الحاضر، بل؛ لأن التاريخ يعاونه على التصور الصحيح.

ولننظر إلى أهمية التاريخ في تربية الدارسين وتثقيفهم، ما قيمة التاريخ في ذلك النوع من التربية الذي يرمي إلى إعداد الأفراد للقيام بحرفة بنجاح وكفاية؟ لقد رمى التعليم في القديم الى غرض مهني، فكان مرمى من توافروا على معرفة التاريخ كسب العيش. فمن أزمنة سحيقة من عهد هوميروس، وجد قوم انهمكوا في دراسة القصص القومي وما يحويه من سير الأبطال، وساروا به خلال الديار اليونانية ينشدونه أمام الناس ويتقبلون ما يمنحونه من هبات. وفي التاريخ الإسلامي كانت طائفة من الناس تعمل

على حفظ أخبار العرب وأيامها وآدابها للتقرب من الخلفاء ولنيل عطاياهم. وكانت طريقة الدراسة لا تعتمد على الأخذ من أفواه الرواة فحسب، بل كثيراً ما كانت تلجأ هذه الطائفة إلى الرحلة إلى الأقاليم التي يراد دراستها والوقوف على عجائبها وطبقات أهلها. ومثل هذه الطائفة كانت تطوف في أوروبا في العصور الوسطى.

وعرف المسلمون للتاريخ فوائد أخلاقية " دنيوية وأخروية " ورأوا فيه مدرسة من مدارس الحياة لها قيمتها في الثقافة، فكان التاريخ عند الدول الإسلامية مادة مهنية تعد لمهنة الكتابة والإنشاء. وفي أوروبا في أوائل العصور الحديثة، كان التاريخ - كما قول جوتش Gooch في كتابه " التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر "[1] يدرس لأبناء النبلاء والأمراء كوسيلة من وسائل تدريبهم على ممارسة أمور الحكم. وفي وقتنا الحاضر، يدرس التاريخ في الجامعات وبعض المعاهد العليا لإعداد الخبراء السياسيين ومدرسي التاريخ. أما في المدارس الثانوية والاعدادية والابتدائية، فتغلب الفكرة الثقافية التي ترمي إلى تكوين الدارس عقلاً وروحاً وإعداده لتذوق الفن والجمال.

وغني عن القول أن مركز التاريخ هام بين العلوم الثقافية، فالاهتمام بالتاريخ إنما هو اهتمام بتركة الإنسان وآثار الجهد الإنساني. وربما يشك بعض الناس في قيمة تثقيف الطلاب بمعلومات عن أشخاص أو حضارات أصبحت الآن طي الفناء كما يجادلون. غير أن هؤلاء الأشخاص وهذه الحضارات - كما سبق القول - لم تعف آثارها، فما زالت مقيمة بيننا مؤثرة

(١) History and Historians in the Nineteenth century,

فينا وملهمة لنا . وما قيمة المعلومات الأخرى للإنسان إذ لم يعرف نفسه وماضي حياته وتفكيره في أطواره المختلفة . فدراسة الإنسان ينبغي أن تكون محور كل دراسة .

أما مركز التاريخ في التربية الخلقية الاجتماعية فلا يقل أهمية . ويرمي ذلك النوع من التربية إلى تكوين الأخلاق أو الشخصية ، فالإنسان قد ولد في مجتمع يعد أفراده للحياة فيه وفق عاداته وتقاليده ونظمه ومثله العليا ، ولا ريب في أن التاريخ يكاد يكون ألزم العلوم لهذا النوع من التربية ، لأن التاريخ يدرس نمو الإنسانية وتراثها الاجتماعي .

وهناك اعتراضات قد تثور في أذهان بعض المفكرين ، فيرى فريق - ومن هؤلاء هاسلوك Hasluk في كتابه " تدريس التاريخ " The Teach-ign of History أن التاريخ لا يعرض أمامنا أمثلة حسنة للسلوك المرضي فحسب ، بل كثيراً ما يضرب أمثلة للقسوة والغدر والأنانية . ولو أن المؤرخ استبعد ذلك الجانب من التاريخ لجعل من شخصياته أبطالاً خياليين لا يدأبون وراء شيء غير الفضيلة ، وهذا في ذاته مخالف للأمانة العلمية . ويقول فريق آخر - على رأسه لانجلوا[1] - " لقد أصبحنا لا نرجع للتاريخ لنجد دروساً في الأخلاق أو مثلاً عليا للسلوك أو مواقف باهرة ، فنحن نرى أن القصة الخيالية لتحقيق ذلك الغرض مفضلة على التاريخ ، لأنه تظهر فيها الأسباب والنتائج المتفقة مع آرائنا في العدالة " . ويرى فريق ثالث - ومن

---

(١) Langlois: Qestions d'Histoire et d'Enseignement

هؤلاء باجلي[1]- أنه ليس ثمة فائدة أخلاقية نافعة من دراسة التاريخ، فهل دراستنا لتاريخ روما التي هوى بها الانهماك في اللذات والترف منذرة لعصرنا الحاضر بالاضمحلال؟ ويؤيد ذلك الفريق فكرته بأنه لم توجد فترتان متشابهتان من كل الوجوه في حياة الأفراد، فيكف في حياة الشعوب؟ وفريق رابع[2] يندد بأن الماضي قد سيطر على عقولنا وتفكيرنا، فنحن لا زلنا نفكر بتفكير الماضي، مع أن الظروف قد تغيرت وتبدلت، ولابد من الاهتمام بالحاضر وبالنظر الى المستقبل.

ويرد على هذه الآراء بالقول أن التاريخ يفسر الحياة الإنسانية الماضية، فهو لا بد موضح لناحيتي الخير والشر. والتربية الاجتماعية لا ترمي إلا لإعداد الفرد للحياة بما فيها من مفارقات. وهي لا ترمي إلا لإيجاد التوازن بين الغرائز الاجتماعية للإنسان وغريزة حب الذات، وهي تريه جانبي الحياة: الخير والشر. ونحن لا ننكر أننا نرمي بمثلنا التاريخية إلى رفع مستوى الحياة وتطهيرها من أدرانها، ولكننا نعمل في الوقت نفسه على إعداد شخصية حقيقية لا خيالية.

كما أننا لا نستطيع إنكار استفادة الإنسان من تجارب آبائه واستفادة الأمم من تجارب من سبقهم، فحياة الفرد والأمم قصيرة، ويمتاز الإنسان عن الحيوان بذكائه وقدرته الكبيرة على التعلم. على أنه في دراستنا للماضي لا ينبغي نسيان الحاضر تماماً، فيجب دائماً ربط الماضي بالحاضر وتبيين أثر الماضي في النظم الموجودة، ،كما يجب ألا تكون دراسة الماضي دراسة إعجاب فحسب، بل دراسة نقد له وتفكير فيه. وتلزم العناية بدراسة الأمثلة

(١) Bagley : Educational Values

(٢) من أصحاب هذا الرأي نيتشه Nietzsche

التاريخية، لأنها خير من دراسة كثير من النظريات الأخلاقية، فكلما كان المثل مأخوذاً من الحياة، كان أثره أكثر بقاء في النفس وأعمق قراراً فيها. وليست قيمة هذه الأمثلة مقصورة على عملها على استقرار الحياة، وإنما في توجيهها لها، كما أن قيمة هذه الأمثلة ليست في المبادئ التي تمثلها فحسب، بل في الشعور والعواطف التي تستثيرها.

وأهمية التاريخ في التربية العقلية والجمالية كبيرة، فطبيعي أنه إذا زادت معلومات الفرد زاد فهمه للحياة، واتسع أفق تفكيره، وارتقت مقدرته على الحكم. ويجد الدارس في التاريخ مواضع للتفكير الصحيح، فيستطيع البحث في أسباب الحركات العظيمة ونتائجها، وفيما يكون اتجاه الإنسانية لو أن حادثاً هاماً لم يقع، ولا شك أنه في طريقة البحث الذاتي وقراءة المصادر الأصلية وتفسيرها وموازنتها ونقدها، ما يثير همة الباحث ويبعث فيه حب الحقيقة والبعد عن التحيز.

ثم ما قيمة التاريخ في التربية القومية والإنسانية؟ أن الإنسان يولد في مجتمع تربطه بأفراده علاقات، وهو لا يدري شيئا عن نظم ذلك المجتمع وقوانينه التي هي كنز خلفه الماضي: ماضي بلدته وماضي وطنه وماضي الانسانية. ولا مناص للفرد من تلقي هذه التركة بما فيها من أعباء ومسؤوليات، وكيف يقوم الفرد بواجبه إذا لم يعرف قيمة هذه التركة في حياته؟ إن التاريخ يبرز لنا هذه التركة في ثوبها الحقيقي دون تحيز. وقد لاحظ كثير من المفكرين هذه القيمة فقالوا بتدريس التاريخ والاهتمام به حتى يكون المحور الذي تدور حوله الدراسة. وقد ظهرت هذه الفكرة بشكل واضح في بروسيا عقب كارثة يينا Jena (١٨٠٦)، ثم انتشرت في أوربا بين الشعوب التي تتحفز للظهور والوحدة. فقد رأت هذه الشعوب أن

الوطنية الحقة لا تقوم إلا على فهم نظم الوطن وتقدير التركة التي خلفها وتحمل المسؤولية التي تركها ومعرفة أيام عظمته وأيام بأسائه والعمل على نشر الرسالة التي خلق من أجلها. والتاريخ حينما يذكر بمجد الوطن ومحنته، هو يدعو في الوقت نفسه إلى المحافظة على تراث الوطن سليما للمستقبل، إن لم يكن زائدا، فغير منقوص. وهو يخلق العاطفة والشعور الذي يدفع الفرد للقيام بواجبه. على أنه في إشباع الغرض القومي، يجب أن نراعي الأمانة العلمية، فلا نشوه الحقائق.

أما أهمية التاريخ للإنسانية، فالتاريخ سجل لما ضيها، والنفس ميالة بطبيعتها إلى معرفة شيء من ذلك النسيان الذي تربطها به وشائج القرابة والنسب، والإنسان نفسه لا يفسره إلا تاريخ الإنسان. ولن ينكر أحد قيمة ماضي الإنسانية لحاضرها، ويدلل المفكر الإنجليزي جراهام والاس Gra-han Wallas في كتابه " ميراثنا الاجتماعي " Our Social Heritage على هذه القيمة، بأنه لو فرض وأصيبت الأرض بصاعقة لنسي كل فرد العادات والمعلومات التي أخذها عن الأجيال الماضية، فتسعه أعشار سكان لندن ونيويورك سيموتون في خلال ستة أشهر، إذ لا يكون لديهم لغة ولا أفكار ولا معرفة بالقراءة والكتابة، وليعيش الإنسان الآن وهو محتاج لإنسانيته القديمة، وكلما ارتقت بالإنسان الحضارة زاد احتياجه اليها.

ويرينا التاريخ تعاون الإنسانية في ارتقاء سلم الحضارة، كما يرينا أنها سائرة في طريق النمو والتحسن، فالأفراد يحيون ثم يموتون، والأمم تقوم وتسقط والحضارة تتقدم حيناً وحينا تتأخر، ولكن النمو مطرد رغم ذلك، فالإنسان كفرد تزداد حقوقه، وأصبح أمامه مجال كبير لخدمة مستقبله

وعائلته ووطنه والعالم. وينكر بعض المفكرين النمو في ناحية الروح والدين والأخلاق، فالعصور الماضية هي عصور الأنبياء، ولم تتقدم الأخلاق خطوة، فالقانون بين الأمم والدول لا زال قانون القوة. وحتى من الناحية العقلية، يشير البعض إلى مثل ذلك النقص، فلا يوجد دليل في نظرهم على أن عقل الإنسان في الحاضر أرقى من عقل أفلاطون. ويقول هكسلي Hux-ley أنه لا يعرف دراسة محزنة لتفسير تطور الإنسانية مثل دراسة التاريخ، فالإنسان لا زال وحشاً، ولو أنه خير من الوحوش الأخرى وأحسن الحضارات الحديثة لم تظهر لنا مثلاً أعلى أو شيئاً جديراً بالبقاء.

ويرد على ذلك بأن التاريخ لا ينكر على كل عصر مساوئه، وأن الإنسانية لم تبلغ حد الكمال، وأن الطبيعة الإنسانية ذاتها لم تتغير إلا بمقدار ضئيل، وإنما الذي يتغير هو تكييفها لظروفها الطبيعية والاجتماعية. ونمو محصول الإنسانية من حيث المعلومات والناحية المادية واضح، فكشف العالم الجديد وكشف كثير من قوى الطبيعة واستغلالها لمصلحته وتكييف الإنسان للبيئة من إصلاح الأراضي وإزالة الغابات واختراق البحار والجبال والصحارى والهواء شواهد على النمو العقلي وارتفاع مستوى المعيشة. ولا ريب في أن زيادة القدرة على التعليم وتقدم العلم وسهولة الانتقال، هي في مصلحة الرقي العقلي والروحي.

ويجد الدارس في التاريخ أقوى خادم للفكرة الإنسانية ذاتها، لأن التاريخ يقلل من حدة التعصب أو التحيز لقومية أو لدين أو لعادات، فهو يبين أن العالم لم يقم على حضارة واحدة أو عصر واحد أو لغة واحدة، فلكل أمة نصيبها في ذلك الميدان لا يغمطها التاريخ إياه، وأن الأمم تبادلت -

ولا تزال تتبادل - أنواع الحضارة . فلئن كان العالم قد أفاد من الحضارات القديمة، فقد كانت العصور الوسطى خطوة عملية صوب العصور الحديثة .